

صناعة الحقيقة عبدالله عمر باوشخه



ليست الحقيقة ضوءاً يُلقى على الأشياء،

بل فعلاً إنسانياً يُبنى بين الفكر والضمير..

وكما تُصنع الآلات من تآلف القطع، لكلٍ منها وظيفة، مهما صغر حجمها،

تُصاغ الحقيقة من انسجام الصدق والإتقان والإيمان..

هي نتيجة جهدٍ داخليٍّ يبدأ من وعي الإنسان بذاته،

وينتهي باتزانه مع الكون..

فكل صناعةٍ تنشُد الإِتقان،

وكل حقيقةٍ صادقةٌ تُكتب ولو على هامش السطر...

بهدوء، وعمق، وإخلاص.

الآلة منظومة ميكانيكية وإلكترونية متكاملة،

تتكوّن من مجموعةٍ من الأدوات والأجهزة، لكلٍ منها دورٌ محدّد داخل النظام العام للآلة..

تعمل هذه المكونات بتناغمٍ يعتمد على الطاقة والمادة والحركة والمعلومة،

فلا يستطيع أيّ جزءٍ منها أن يؤدي وظيفته بمعزلٍ عن الآخر..

ومن خلال هذا التكامل تتضاعف القدرة البشرية على الإنتاج،

إذ تتحوّل الطاقة من شكلٍ إلى آخر بكفاءةٍ أعلى ودقّةٍ أكبر..

ندرك جميعاً أن الصناعة علمٌ وفنٌ لتحويل الشيء من حالٍ إلى حالٍ أفضل، بوسائلٍ مقصودةٍ ومنظمةٍ، سواء كان ذلك في المادة أو الفكر أو السلوك..

ومفردة الصناعة تُستعمل في التعبير عن مجالاتٍ متعدّدة كصناعة المواد، صناعة القرار، صناعة المحتوى، صناعة الإنسان... فجميعها تشترك في معنى التحويل والإتقان والإبداع، فهي القدرة على تحويل الموارد إلى منافع، والفكرة إلى واقع، والجهد الفردي إلى أثر.

الصناعة علامةٌ فارقةٌ في نضج الأمم، لأنها فعلٌ جماعيٌّ منسّق لا يتحقق إلا بتكامل الأدوار وتضافر الجهود بين الفكر والتطبيق، بين الإنسان والآلة، بين التخطيط والتنفيذ.

هي موسيقى متناسقةٌ الأدوار، يعزف فيها كلُّ عنصرٍ لحنه الخاص، غير أنّ الجمال لا يكتمل إلا باجتماع الأصوات في تناغمٍ واحد.

كما أن صناعة القرار عمليةٌ منهجيةٌ واعية، تهدف إلى اختيار أفضل البدائل الممكنة من بين الخيارات المتاحة، استناداً إلى تحليلٍ علميٍّ للمعطيات والمعلومات، وموازنةٍ دقيقةٍ بين المصالح والمخاطر، وصولاً إلى قرارٍ يحقق الأهداف بكفاءةٍ وفاعلية.

أما في التعامل الإنساني، فتُعدّ صناعة الثقة من أرقى الصناعات، لأنها لا تُدار بالآلة ولا تُصاغ بالأنظمة، بل تُنحت في أعماق النفس والعلاقات كما تُنحت الملامح على وجه الزمن.

هي بناءٌ متدرّجٌ يقوم على الصدق والاتساق والاحترام والإنجاز، يزرع الإيمان المتبادل بأن الأقوال تُترجم إلى أفعال، وأن الالتزام قيمةٌ لا شعار.

وهكذا، كما تُبنى الصناعة على التكامل والإتقان، تُبنى الحقيقة على الصدق والبساطة والإحسان..

فالحقيقة أيضاً صناعة... لكنها كثيراً ما تُمارس في الهامش.

لا يشترط أن تكون الحقيقة دائماً في صدر الصفحة،

ولا في العنوان العريض الذي يسرق الأعين،
ولا في الكلمات المنسقة التي تُخاطب الذوق قبل الوعي،
لأنها كثيرًا ما تكون مصفوفةً بعنايةٍ أكثر مما هي نابضةٌ بالحياة.
كثيرًا ما تختبئ الحقيقة في الهامش...
في سطرٍ كُتب على استحياء،
أو ملاحظتٍ دُونتها يدُ صادقة ثم مرّت،
أو تنهيدةٍ لم تجد طريقها إلى الجملة.
فالهامش ليس فراغًا كما يظنه الناس،
بل مساحةٌ نجاةٍ من ضجيج التجلّ،
وملاذٌ تلوذ به الأرواح حين تضيق بالادّعاء.
كم من سطرٍ عابرٍ كان أعظم من مقال،
وكم من تعبيرٍ هاديٍّ كشف ما لم تُقله الصفحات الأولى..
بل إن بعض الحقائق تسكن التفاصيل الصغيرة،
تلك التي لا تحاول أن تُبهر، بل أن تكون صادقة.
قد تقرأ جملةً كاملةً في كتّابٍ ما،
ثم تكتب في الهامش كلمةً أو تعليقًا تختصر (أنت) به حقيقةً ومرادها.
لقد أنهلك الإنسان المعاصر بكثرة العيون التي تحدّق فيه،
حتى صار يعيش تحت ضوء الآخريين، لا تحت ضوء ذاته..
يسألهم عن قيمته، وعن مدى استحقاقه لأن يُرى،
ونسى أن الأصل أن يعرف نفسه بنفسه،
وأن يقيس صدقه لا بمقاييس الناس،
بل بميزان السماء الذي لا يخطئ.
كم من رجلٍ يقتني ما يُخفي خواءه الداخلي،
وكم من امرأةٍ تشتري ما يمنحها شعورًا زائفًا بالاكتمال،
وكلاهما يبحث عن اعترافٍ خارجيٍّ،
لأنه فقد الاعتراف الداخليّ.
الحقيقة بجوهرها لا تحتاج إلى جمهور،
ولا إلى إطراءٍ أو تبرير.
إنها حالةٌ صفاءٍ بينك وبين نفسك،
فلا تسأل الناس عن قيمتك،
ولا تنتظر رضاهم لتطمئن إلى ذاتك.
من جعل رضا الخلق مقياسًا،

ظلّ يتقلّب في قلقٍ لا ينتهي..
نحن لا نزدري المتن،
لكنّا نقدّر الهامش.
ففيه تُكتب المعاني بلا تجميل،
وتُقال الحقائق بلا حذر،
ويظهر الإنسان كما هو، لا كما يُراد له أن يكون.
الهامش ليس ضعفاً،
بل ترنّجٌ عن الصخب،
وتحرّزٌ من الحاجة إلى العيون.
إنه مساحةُ النقاء،
حيث تلتقي النفس بذاتها دون وسطاء.
وربّ سطرٍ نُسي في الهامش،
كان عند الله من أعظم ما كُتب،
وربّ عنوانٍ تصدّر المتن،
فلم يحمل سوى هواءٍ يتلاشى مع أول ريح.
فكن صادقاً في الهامش،
ولا تكن مزهواً في المتن،
فالعظمة ليست في أن تُرى،
بل في أن تكون حقيقياً حين لا يراك أحد.
في كل ما نكتب، نحاول أن نعيد للحقيقة ملامحها الأولى،
فهي لا تُصنع بالضجيج، بل بهدوء الضمير حين يطمئن.
واليقين أن الهامش ليس نهاية النص،
بل هو، في كثيرٍ من الأحيان، بدايته الحقيقية.
لا تقلل من شأنك لأنك في الظل،
فالهامش أحياناً أصدق من المتن،
والضوء لا يكتمل إلا حين يجاوره الظل.

عبدالله عمر باوشخه